المهاجرون الليبيون في تونس ودورهم في دعم حركة المقاومة 1911 – 1953م.

إبتسام فرج رمضان عون*
قسم علوم التاريخ والآثار، كلية الآداب العجيلات، جامعة الزاوية ، ليبيا
البريد الالكتروني: a.awn@zu.edu.ly
تاريخ الارسال 2025/7/5م تاريخ القبول 2025/10/1

Libyan Immigrants in Tunisia and their Role in Supporting the Resistant Movement (1911 – 1953)

Ebtisam faraj Ramadan Awn*
Department of History and Archeology, Faculty of Arts, University of Zawiya, Libya

Abstract
Libya has witnessed an internal and external migration movement due to the harsh conditions imposed by the war and its negative effects on society,
Such as famines, epidemics, political turmoil and conflicts with the Italian colonizer, and this was reflected in a search for safe areas and changes in the demographics and social composition in Libya.
This research dealt with the migration of the Libyans outside the country during the period of the Italian invasion in 1911 AD, the factors and the reasons that led to it and its expression and the effects of the war on the population and the population movements in Libya.
We will also try through this research to know the circumstances that immigrants in the Tunisian countries and their political role in supporting the resistance movement against Italian colonialism and their return conditions and effects.
Keywords:
Immigration _ resistance - occupation

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

الملخـــــــــص :

شهدت ليبيا حركة هجرة داخلية وخارجية بسبب الظروف القاسية التي فرضتها الحرب وتأثيراتها السلبية على المجتمع، مثل المجاعات والأوبئة والاضطرابات السياسية والصراعات مع المستعمر الإيطالي، وانعكس ذلك في بحث عن مناطق آمنة وتغييرات في التركيبة السكانية والاجتماعية في ليبيا .

وتناول هذا الموضوع هجرة الليبيين إلى خارج البلاد خلال فترة العزو الإيطالي عام 1911م والعوامل والأسباب التي أدت إليها وتأثيراتها وأثار الحرب على السكان والتحركات السكانية في ليبيا، كما سنحاول من خلال هذا البحث معرفة الظروف التي مر بها المهاجرين في البلاد التونسية ، ودورهم السياسي في دعم حركة المقاومة ضد الاستعمار الايطالي وظروف عودتهم وآثارها .

الكلمات المفتاحيـــــــــة : الهجرة ـ المقاومة ـ الاحتلال.

المقدمة :

ظاهرة الهجرة تُعد واحدة من السمات الملازمة للبشر منذ القدم، إذ دفعتها الظروف البيئية والجغرافية والاقتصادية وغيرها من المحركات إلى دفع الناس للابتعاد عن مواطنهم وانتقالهم إلى أماكن جديدة بحثاً عن حياة أفضل كلما تعقدت سبل العيش، وقد لعبت هذه الظاهرة دوراً مهماً في إحداث تغييرات اجتماعية واقتصادية في المناطق المختلفة، حيث يساهم تنقل الأفراد والجماعات في تعزيز التفاعل والاندماج على المستويات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية بين دول الجوار، الهجرات الليبية نحو تونس تمثل إحدى المحطات البارزة في تاريخ البلدين، إذ جاءت لتؤكد مدى الترابط المستمر بينهما وتبرز عمق العلاقات والتبادلات المشتركة .كانت تونس وجهة ملجأ للكثير من الليبيين، سواء هروباً من بطش السياسة الإيطالية القمعية أو بشكل اختياري، حيث اختار البعض البلاد كمقر لدعم المقاومة الوطنية الليبية، من الطبيعي أن تتوجه أنظار المهاجرين نحو تونس نظراً لوحدة الدين واللغة والتاريخ الاجتماعي المشترك بين الدولتين، وقد أسهم الليبيون المقيمون في تونس بشكل كبير في الحياة العامة هناك، مما مكّنهم من لعب دور ريادي في دعم حركة المقاومة الوطنية وفي إبراز القضية الليبية على الساحة المحلية والدولي.

إشكالية الدراسة :

تتناول دراسة ظاهرة الهجرة الليبية إلى تونس عمق الروابط التاريخية والاجتماعية بين الشعبين، حيث تسلّط الضوء على الدور البارز الذي أداه المهاجرون الليبيون في دعم حركة المقاومة الوطنية الليبية .تفتح هذه الدراسة المجال لطرح مجموعة من التساؤلات المحورية، أهمها :ما هي طبيعة وأسباب هذه الهجرة؟ ما الفئات التي شملتها وأعدادها؟ وكيف تمكّن المهاجرون من تنظيم أنفسهم داخل المجتمع التونسي؟ بالإضافة إلى استكشاف موقف السلطات الفرنسية من هذه الهجرة، والدور الذي لعبه المهاجرون الليبيون في النسيج الاجتماعي التونسي ،وأخيراً، تبحث الدراسة في السبل التي أسهم من خلالها هؤلاء المهاجرون في دعم حركة المقاومة الوطنية داخل ليبي.

الفرضية :

تعتمد الدراسة على فرضية تتصل بقضية وطنهم، إذ أسهموا بشكل كبير في تحديد مصير تحرير واستقلال بلادهم.

الهدف :

يهدف البحث إلى دراسة الدور الذي اضطلع به المهاجرون الليبيون في تونس ضمن حركة المقاومة ضد الاستعمار لإيطالي، وتحليل أثر مشاركتهم في دعم القضية الوطنية الليبية.

أهمية الدراسة :

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تتناول واحداً من الموضوعات الحيوية التي أثارت اهتمام عدد من الباحثين؛ فهي تمثل محاولة جادة من الباحثة لبحث تاريخ العلاقات بين البلدين، مع التركيز بشكل خاص على ظاهرة الهجرة المتبادلة، وما ترتب عليها من تطورات ونتائج انعكست على المجتمع والدولة.

الحدود الزمنية:

تم اختيار عام 1911 كبداية لهذه الدراسة لكونها السنة التي شهدت الهجوم الايطالي على ليبيا ،وبداية الهجرات نحو دول الجوار، وقد حددت الباحثة الهجرات

نحو البلاد التونسية ،وعام 1932 م كانت بداية لمرحلة جديدة في التاريخ الليبي بحصول البلاد على الاستقلال

المنهج المتبع :

تقوم هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي، الذي لا يخلو أحيانا من التحليل في بعض الجوانب ،من أجل الوصول إلى الحقيقة قدر الإمكان ، والمساهمة في إعادة كتابة موضوع الهجرات الليبية إلى تونس وما أسفرت علية من نتائج على البلدين .

الدراسات السابقة :

1 - دراسة بعنوان (هجرة الليبيين الداخلية والخارجية خلال فترة الاحتلال الإيطالي)، للباحث : أكرم عثمان عبد الرزاق عمر.

2 - دراسة بعنوان (المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية (1911-1950)د.إبراهيم أحمد أبو القاسم .

3- دراسة بعنوان (العلاقات بين ولايتي طرابلس الغرب وتونس 1791/1881.تشكل محاولة لتتبع العلاقات بين الولايتين ،ورصد ما صاحبها من تطورات وما آلت إليه من نتائج وتأثيرات على الدولة والمجتمع في المنطقتين .

4- دراسة بعنوان (المهاجرون الليبيون بألا يالة التونسية 1861-1881) الذي نشره مركز جهاد الليبيين وتعرض للهجرات الليبية إلى تونس ،من حيث مناطق انطلاقها واستقرارها وتنظيماتها الإدارية هناك دون الدخول في تأثير هذه الهجرات على العلاقات ما بين الولايتين

المحور الأول - دوافع الهجرة:

لهجرة المواطنين دواع عدة دوافع جعلتهم يهاجرون بلدانهم إلى بلدان أخرى طلبا لأمن والاستقرار ، ومن هذه الدوافع:

1 - الدوافع السياسية:

كانت ليبيا آخر الولايات التي خسرتها الدولة العثمانية، بعد أن عانت من الضعف الشديد في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والمعرفية خلال فترة ارتباطها بها، وهذا التراجع أثار اهتمام إيطاليا، التي تابعت الأوضاع الليبية عن كثب وجمعت معلومات دقيقة عن حالة الدولة العثمانية، ومع وجود حالة عسكرية غير المستقرة تحول دون قدرتها على مواجهة أي عدوان أجنبي، أصبحت الدولة عاجزة عن التصدي لأي تهديد خارجي، ومما زاد من

تأزم الوضع، هو تدهور أوضاعها السياسية بفعل الثورات الإقليمية، إلى جانب أزمتها المالية العميقة، التي دفعتها تدريجياً إلى حافة الانهيار بعد سلسلة من الهزائم والضعف المتزايد.[1]

كل هذه العوامل جعلت ليبيا هدفًا رئيسا لإيطاليا، مستغلة غياب القانون الدولي الذي يمكن أن يردعها عن انتهاك الأراضي الليبية واغتصابها من أصحابها الشرعيين، وعلى رغم من ضعف الإمكانيات لدى السكان المحليين، إلا أنهم استطاعوا تشكيل فروع المقاومة الشعبية للدفاع عن أراضيهم في ظل انسحاب الدولة العثمانية، وإعلانها عدم قدرتها المالية على توفير الإمدادات اللازمة لدعم الليبيين في مواجهة الاحتلال، وهذا الإعلان من الدولة العثمانية شكل صدمة كبيرة للشعب الليبي، مما دفع بعض القيادات غير المنظمة إلى اتخاذ خطوة جريئة بتشكيل جبهات مقاومة ضد الاستعمار، فقام (سليمان الباروني) بإنشاء حركة مقاومة قوية في المناطق الغربية، بينما قاد (أحمد الشريف السنوسي) معارك المقاومة في المناطق الشرقية من ليبيا، ردًا على تخلّي الدولة العثمانية عنهم، وهذا الموقف أدى إلى شعور الليبيين بخيبة أمل كبيرة تجاه الدولة العثمانية، خاصة بعد توقيعها معاهدة الصلح مع إيطاليا عام 1912م، والتي بموجبها تحصلت إيطاليا على السيادة الكاملة في ليبيا، ورغم ذلك لم يتخل الليبيون عن المقاومة، وظلوا يتصدون للاحتلال بما يمتلكونه من أسلحة بسيطة، في وقت كانت فيه التكنولوجيا العسكرية المتطورة بعيدة عن متناولهم .[2]

وبعد ذلك، اعتمدت إيطاليا نهجاً جديداً يسوده التسرّع، حيث حاولت خداع الأهالي عبر الدعاية التي زعمت أنها جاءت لتحسين الأوضاع، وخدمة الشعب، وتوفير حياة كريمة لهم، وكان الهدف من هذه الخطوة هو تهدئة المقاومة. غير أن الحقيقة سرعان ما تكشفت من خلال الممارسات القمعية والأساليب المستبدة التي استخدمتها ضد الأهالي، كل ذلك وسط غياب شبه كامل للدول العربية والمجاورة، وخصوصاً بسبب انشغال تلك الدول بمعاناتها تحت الاحتلال الفرنسي ، رغم هذا الوضع، لم يتراجع الشعب التونسي عن تقديم الدعم المادي، كما تطوّع العديد من أبنائه للمشاركة في المقاومة الشعبية إلى جانب الشعب الليبي ومساندته في نضاله.

لهذا السبب، اختار بعض الليبيين الهجرة إلى مصر وسوريا، من مختلف الفئات الإعلامية والصحفية، بالإضافة إلى الشخصيات السياسية البارزة، مثل (بشير السعداوي)، (سليمان

الباروني)، و(أحمد المريض) ،هؤلاء كانوا مؤهلين للقيام بدور سياسي فعال يدعم المقاومة الليبية ويسهم في تحقيق استقلال البلاد.

2- الدوافع الاقتصادية:

يُعد العامل الاقتصادي من أبرز الأسباب التي دفعت الليبيين إلى الهجرة، حيث ساهمت تدهور الأوضاع السياسية خلال فترة الاستعمار في تفاقم معاناة السكان عبر سياسات هدفت إلى تجويعهم، ونتج عن هذه السياسات تقلص التجارة وتدهور النشاط الزراعي، خاصة بعد طرد الليبيين من الأراضي الخصبة وتحويلهم إلى عمال يتلقون أجوراً غير كافية لتغطية احتياجاتهم الأساسية، وفي عام 1922م، تمكن الاستعمار من تنفيذ خطط لإبعاد المواطنين عن مزارعهم، وهو ما كان له أثر بالغ لم يقتصر على الطبقة الفقيرة فقط، بل امتد ليشمل مختلف شرائح المجتمع، بما في ذلك الطبقة الغني.[3]

وفي عام 1928م، بدأت فترة أكثر صعوبة تمثلت في الاستيلاء على الأراضي الزراعية من أصحابها بالقوة، وخاصة الأراضي ذات التربة الخصبة، ومنحها للمهاجرين الإيطاليين مع توفير الدعم المادي لهم.[4]

تأثر الوضع الاقتصادي بصورة كبيرة نتيجة موجات الجفاف التي ضربت البلاد، إلى جانب انحباس الأمطار، والسياسات التي انتهجتها إيطاليا آنذاك، والتي أدت إلى تفاقم معاناة السكان من الجوع.[5]

3- الدوافع الاجتماعية :

إن السياسة الاستعمارية وما صاحبها من عنف ونهج وصائي تجاه السكان الأصليين تركت آثارًا اجتماعية عميقة، وتجسّدت هذه الآثار في حالات إجبار الأهالي على الهجرة، وسلب ممتلكاتهم، والسيطرة الكاملة على البلاد، واستغلال مواردها بشكل مفرط، و بالإضافة إلى ذلك، دمرت هذه السياسات التماسك الاجتماعي من خلال ممارسات متعددة استهدفت شرائح مختلفة من الشعب الليبي، وخاصة سكان المناطق الشرقية، وتشير بعض المصادر إلى أن السلطات الاستعمارية استخدمت الفتيات من مناطق مختلفة في ليبيا، خصوصًا من مناطق الجبل، لترحيلهن مع القوات الإيطالية واستغلالهن في أعمال غير أخلاقية، وهذا السلوك الوحشي أثار غضب المجاهدين في منطقة الجبل تحت قيادة (خليفة بنعسكر)، ما أدى إلى اندلاع معارك عنيفة وأسر العديد من المجاهدين، والأحداث التي

كانت تقع داخل المعتقلات أحدثت حالة من الرعب، تاركة تأثيرًا كبيرًا على الحياة الاجتماعية آنذاك.(6)

تفنن الاستعمار الإيطالي في اضطهاد الشعب الليبي، وكان من أبرز مظاهر هذا الاضطهاد إعلانه التجنيد الإجباري خدمةً لمصالحه، وبموجب ذلك، أجبر آلاف الليبيين على المشاركة في حروب ومعارك خارج حدود وطنهم، بينما اضطر آخرون إلى الهجرة هربًا من قسوة الظروف التي فرضها الاحتلال عليهم.(7)

المحور الثاني ـ أهم القبائل والأسر المهاجرة وتوزيعها وإعدادها:

1 ـ طبيعة وأسباب الهجرة و توزيع أعدادها :

كانت هناك هجرات من ليبيا إلى تونس اقدم من تاريخ 1911 حيث حدثت هجرات في فترة الحكم العثماني و قبله ، وعُرف الليبيون في تونس بحسب أماكن مجيئهم : الطرابلسي، الغدامسي، الفزاني..، تلاشت إلى حد كبير الألقاب و القبائل و صار لقب الطرابلسي هو الشائع في تونس لوصف المهاجرين من غرب ليبي، يقدر (جون ديبوا) عدد المهاجرين الإجمالي من ليبيا بربع مليون و أما (حسن خشيم) فيقدر العدد بحوالي (140) ألف نسمة، و تظهر بعض الإحصاءات الفرنسية إن عدد من هاجر إلى تونس قرابة (28) ألف نسمة و ربما يكون هذا عدد من بقي على جنسيته الليبية ، و من أهم أسباب الهجرة : الحرب و أثارها المدمرة، الجفاف الذي تسبب في نشر الجوع، الهروب من الملاحقة، الفرار من التجنيد الإجباري، طلب العلم، التجارة ،شملت الهجرة جميع فئات الشعب من المجاهدين إلى العلماء و الأدباء و السياسيين و التجار و الطلاب و لكن شريحة الفلاحين و العمال هي الأكبر، واستقرت القبائل المهاجرة في الجنوب و الوسط و الشمال التونسي.

ومن أسباب الهجرة ـ أيضاـ العامل الاقتصادي والمتمثل في سوء المعيشة وتدهور الأحوال وتعرض الأهالي للجوع ونقص الموارد بالإضافة إلى الجفاف الذي عم البلاد وأخذ مصدر عيشهم بالقوة لصالح الإيطاليين المتمثل في الأراضي الزراعية، والضغط الذي تعرضت له من قبل القوات الإيطالية والسياسية التهجيرية المتبعة، والتجنيد الإجباري الذي زج بالشباب إلى حرب خارج حدود بلادة ،لم يكن له الحق في الاختيار فمنهم من تعرض للاعتقال في سجون الظلام ومنهم من فرّ هاربا وكانت الهجرة إلى تونس ملاذا له ،ومنهم من وصل والبعض كان ضحية الجوع، والعطش في رحلته إلى بلاد الجوار.

ولا توجد إحصائيات ثابتة عن عدد المهاجرين إلى تونس 4607 مواطن (وقد اعد المركز هذه الدراسة من خلال مسح شامل للجميع المناطق في ليبيا ،ومن خلال الدولية الشفوية التي تعتقد أنها لا يمكن أن تعطي أرقاماً دقيقة لاسيما وأن الدراسة اعتمدت على مقر الإقامة الأصلي للمواطن ،ومن المعروف أن سكان البدو كانوا غير مستقرين، فهم في حركته دائمة ،يرحلون لبحث عن مواطن الكلا ، وحينما توفرت فرص العيش[8].

أما بالنسبة لإحصاء السلطات الفرنسية قد أشار التفريد إلى أن عدد المهاجرين يبلغ 25,700وقعنا لإحصاء عام1936م.

والملاحظ بعد عدة تقارير منها تقرير المقيم العام الغربيين بتونس إلى (جورجبونات) وزير الشؤون الخارجية الفرنسية بباريس بتاريخ (17 -11-1938م)، تحت عنوان: الجالية الطرابلسية بتونس أنه لا يمكن تحديد الهجرة بفترة زمنية معينة، وبعد الإحصائيات تبين إن عدد المهاجرين الليبيين في تونس يبلغ 20000 نسمه ، ويعد مضى فترة من الزمن يعتبر هؤلاء السكان بحكم التقادم والمصاهرة في حكم سكان البلاد الأصليين.[9]

2 ـ أهم القبائل والأسر المهاجرة ودورهم في البلاد التونسية:

من القبائل التي استقرت بالجنوب : ورفلة، اولاد بو سيف، الجعافرة، المشاشية، مصراتة، ومن القبائل التي استقرت في الوسط و الشمال : ترهونة، المحاميد، العجيلات، ورفلة، غريان، ككلة، الرجبان، الاصابعة، القواليش، الرحيبات، العلاونة، ورشفانة، اولاد شبل .

وقد استقر المهاجرون الليبيون بعد (1911م) ، في القيروان ، صفاقس، سوسة، تبل، قلسية، قرنيالة، خنقة، الحجاج، وزغوان، وادي الرمل الصحف، بئر متشارفة، المحمدية، وتونس، وبنزرت، ومجاز، والباب، والكاف، وبرغم من قرب منطقة الجنوب إلا أن المهاجرين لم يستقروا فيها بل كانت معبرا لهم إلى الوسط والشمال لتوفر موارد العيش فيها من النشاط الزراعي والحرفي، وقد تجمعت القبائل وشكلت طابع اجتماعي خاص بها سواء في المدن أو الأرياف.[10]

وكان للمهاجرين أنشطة مختلفة مارسها الليبيون في تونس ، مثل: الفلاحة، الرعي، العمل بالمناجم، التجارة، الحراسة، الصناعة، التعليم ، العمالة اليومية.

وقد شكل الليبيون في سنة من السنوات في نشاط المناجم ما مقداره 50 ٪ من إجمالي العمالة بتعداد 10 الاف نسمة، حيث اضطرت الظروف كثير من الليبيين إلى طلب الجنسية التونسية لكي يتسنى لهم تملك الأراضي و العقارات و باقي الميزات مثل العلاج و

التعليم، وتفاعل أهالي تونس مع القضية الليبية و شاركوا فيها جهادا بالنفس و المال و الكلمة، و لعل ابرز مظاهر ذلك التفاعل ما حدث في انتفاضة 1915 ضد الجالية الإيطالية في تونس، وكما شارك الليبيون إخوانهم في تونس النضال ضد الفرنسيين، كما انضموا إلى اتحاد الشغل و النقابات و الحزب الدستوري و كل المؤسسات التي مارست المقاومة، و مارس الليبيون الجهاد السياسي ضد الطليان في تونس من خلال الكتابة في الصحف و المؤتمرات و التعريف بالقضية الليبية.

وممن تقلد مراتب عليا في البلاد التونسية، وهو من أصل ليبي نذكر : (الحبيب بو رقيبة) الرئيس الأسبق، و (محمد الأدغم) الذي شغل منصب الوزير الأول، و الدكتور احمد بن ميلاد ذو النشاط النقابي الكبير، و (علي الزليطني) القيادي في النشاط الحزبي[11]

المحور الثالث ـ الأحوال العامة للمهاجرين الليبيين بتونس :

1 ـ علاقة المهاجرين بالسلطات الفرنسية:

لعب المهاجرون دورًا بارزًا في دعم حركة المقاومة والدفاع عن القضية الليبية، رغم إدراكهم لحجم المخاطر الناتجة عن السياسة التعسفية التي مارسها كلٌ من الإدارتين الفرنسية والإيطالية .وعلى الرغم من الصعوبات والتحديات التي واجهتهم، فإنهم بذلوا جهودًا كبيرة للدفاع عن وطنهم، حيث لجأوا إلى تونس واتخذوها مأوى لهم دون أن يغفلوا عن قضيتهم الأم. لقد ساعدهم في ذلك الدعم المقدم من الشعب التونسي الذي وقف إلى جانبهم في العديد من الأوقات والمواقف، ومن بين الشخصيات البارزة في حركة المقاومة نذكر سليمان الباروني، الذي انتقل إلى تونس عام 1913 وكان له دور فعال، حيث أصبح أحد أعضاء الجمهورية الطرابلسية التي تأسست عام 1918 بهدف الدفاع عن القضية الليبية، كما برز دور سوف المحمودي جنوب تونس في نفس الفترة، حيث استقر هناك عام 1913وساهم في تعزيز النشاط السياسي للمهاجرين .كانت المنطقة الجنوبية التونسية بقربها من الأراضي الليبية توفر إمكانية سهلة لنقل وتهريب الأسلحة والاستعداد للعودة إلى الوطن في أي وقت، ولقد توزعت مقاومتهم على مرحلتين، وكانت بداية المعارك وتشكل حركة المقاومة مظهرًا واضحًا لإصرار المهاجرين على استعادة حقوقهم واسترداد أرضهم من المستعمرين[12] ، وفي سبتمبر عام 1915، شهدت المنطقة معارك خاضها المجاهدون التونسيون والليبيون ضد القوات الفرنسية .نتيجة انضمام أعداد كبيرة من المهاجرين التونسيين إلى خليفة بن عسكر، بدأت فرنسا تبحث عن فرص الانتقام من سكان

منطقة وازن، التي كانت تضم الكثير من المجاهدين التونسيين .في هذه الأثناء، وقعت أولى المواجهات في منطقة المرطبة يوم 13 سبتمبر 1915، حيث قاد محمد بن مذكور مجموعة من المجاهدين في مواجهة مع القوات الفرنسية .استطاع المجاهدون خلال هذه المعركة إلحاق الهزيمة بالقوات الفرنسية، مما أسفر عن مقتل اثنين من الجنود الفرنسيين بينما انسحبت بقية الدورية مهزومة إلى مركزها بذهيبة).[13]

2 ـ الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمهاجرين وأثرهم على المجتمع التونسي:

لم تكن القبائل الليبية المهاجرة معزولة عن المجتمع التونسي، حيث كانت تجمعها وحدة الدين واللغة وتشابه العادات والتقاليد .وقد ساهم المهاجرون بدور بارز في الدورة الاقتصادية لتونس، مع تركيز أنشطتهم الزراعية على زراعة القمح والشعير، اللذين شكّلا أساس قوتهم اليومي، وهذا العمل الزراعي عزّز الروابط العائلية والاجتماعية بين المهاجرين، فكانوا يعملون معاً دون تفرقة أو تمييز، و على رغم من احتكار فرنسا للأراضي الخصبة ومنحها للمزارعين الفرنسيين بعد انتزاعها من أصحابها الأصليين، استمر المهاجرون الليبيون في إتقانهم للعمل الزراعي، مما جعلهم مطلوبين لدى المزارعين الفرنسيين .إلى جانب الزراعة، انخرط هؤلاء المهاجرون في العمل بالمناجم في الجنوب التونسي، وكذلك في التجارة الصحراوية المعروفة بتجارة القوافل التي كانت تمر باتجاه السودان ووسط أفريقيا عبر غدامس، وغات، مما أسهم في تبادل بضائع متنوّعة، وأما من الجانب الاجتماعي، فقد كان للهجرة تأثيرا واضحا على المجتمع التونسي، حيث حدثت مصاهرات بين الشعبين، ورغم أن هذه العلاقات لم تنشأ في بداية الهجرة، إلا أنها تطورت بمرور الوقت نتيجة تقارب العادات والتقاليد وأنماط العيش، كما عزّز هذا التفاهم المشترك توحدهم في مذهب واحد وهو المذهب المالكي).[14]

أسهمت هجرة الليبيين في إثراء المجتمع ثقافيًا، حيث جلبوا معهم إرثهم الثقافي الزاخر بالأمثال والتعابير الشعبية المميزة للساحة الليبية، إلى جانب موضوعات تتعلق بالصوف والشعر والوبر والجلود، وكذلك سعف النخيل والحلفاء، التي تمثل جزءًا أساسيًا من حياة سكان الريف، هذا التراث الشعبي نسج وصاغ جزءًا مهمًا من الهوية الثقافية للمجتمع الليبي

أما فيما يتعلق بموقف فرنسا تجاه الليبيين، فقد افتقدت إلى الثبات في مواقفها خلال السنوات التي سبقت الحربين العالميتين، ويرجع ذلك إلى علاقاتها السياسية والدبلوماسية

مع الدول الأجنبية، وخاصة إيطاليا، هذا التقلب في موقف فرنسا أدى إلى اتخاذها نهجًا صارمًا تجاه المهاجرين الليبيين، الذين اضطروا للهجرة إلى تونس بأعداد كبيرة عام 1913م.

المحور الرابع ـ دور المهاجرون الليبيون في دعم القضية الليبية:

1 ـ دعم المهاجرين للحركة المقاومة وموقف السلطات الفرنسية:

شهدت الدول العربية موجة من الاستعمار التي تمثلت في السيطرة على البلاد ونهب مواردها، و كانت ليبيا إحدى تلك لدول التي واجهت المصاعب جراء الحروب ضد الاستعمار الإيطالي وسياساته التعسفية، ومع ذلك، لم يبقَ الشعب الليبي مكتوف الأيدي، بل أطلق حركة مقاومة داخلية مدعومة من المهاجرين في الدول المجاورة، الذين ساهموا في دعم القضية الليبية على المستويين المادي والعسكري من بين أبرز المعارك التي برزت في المقاومة الليبية، كانت معركة "الهاني" في السابع من نوفمبر عام 1911م ، وهذه المعركة جاءت بعد وقت قصير من احتلال إيطاليا للأراضي الليبية، ما يعكس رفض الشعب الليبي للاستعمار رغم ضعف الإمكانات المتاحة .وقد دارت أحداث تلك المعركة حول محاولة السلطات الفرنسية الاستيلاء على مقبرة الزلاج حجج استغلالها لأغراض استراتيجية لاحقاً، شهدت البلاد انتفاضة عام 1915التي كانت جزءاً من سلسلة نضالات شعبية ضد الاستعمار، أبرزها المعارك لتي قادها (خليفة بن عسكر التالوتي) بين عامي 19 15 و19 .18تميزت معارك الجنوب الليبي بأهميتها وقوتها، ما دفع فرنسا إلى تعزيز قواتها هناك للتصدي لهذه المقاومة الشرسة، و من بين القادة الذين لعبوا دوراً محورياً في تلك الفترة، كان سليمان الباروني، الذي عاد ليقود إحدى مراحل الجهاد ضد الاحتلال.[15]

2 ـ موقف السلطات الفرنسية من المهاجرين:

كان للمهاجرين الليبيين علاقات ودية مع الشعب التونسي، الذي بذل جهوده وقدم المتطوعين لدعم ليبيا في مقاومتها للاستعمار الإيطالي، وفي المقابل، وقف الشعب الليبي المهاجر إلى جانب الشعب التونسي في حركة الجهاد ضد الفرنسيين، حيث قدم الشعب التونسي الإمدادات والمساعدات اللازمة، وتعد معركة (الزلاج)، التي اندلعت في 7نوفمبر 1911م، واحدة من أبرز الأحداث التي عبّرت عن تضامن الشعب التونسي مع الشعب الليبي خلال مسيرته في مقاومة الاستعمار، على الجانب الآخر، لعب المهاجرون الليبيون دورًا فعالًا في دعم المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي إلى جانب أشقائهم التونسيين؛ ففي

اليوم ذاته، السابع من نوفمبر 1911، شهدت مدينة تونس يومًا حافلًا بالأحداث، حيث تصاعد الصدام بين الشرطة الفرنسية والإيطالية من جهة والشعب التونسي من جهة أخرى، ووسط إطلاق النار من الشرطة على الحشود، لم يأبه المتظاهرون ، واستمروا في التقدم مرددين شعار (الجهاد في سبيل الله) ، وفي هذه المواجهة، تكبدت القوات الإيطالية والشرطة الفرنسية خسائر كبيرة، إذ قُتل ثمانية أفراد منهم على يد الجماهير التي ظلت ثابتة في ميدان المعارك.[16]

لقت السلطات الفرنسية القبض على أعداد كبيرة من المتظاهرين، وقامت بإحالة 72 شخصاً منهم إلى المحاكمة أمام المحكمة الفرنسية الجنائية، ومن بين هؤلاء، كان هناك ثلاثة مواطنين ليبيين :رحومة بن مبروك الطرابلسي البالغ من العمر 91 عاماً من منطقة الزاوية الغربية، حسن بن قاسم بن علي الذي يبلغ 30عاماً من مدينة غدامس، ومصطفى بن محمد الطيب وعمره 23عاماً أيضاً من غدامس، و كما تم الحكم بالإعدام على محمد بن علي الشاذلي الطرابلسي، ثم تمّ تخفيف الحكم إلى الأشغال الشاقة ، وصدر حكم بالإعدام بحق مجموعة من أبناء تونس، وكان على رأسهم الشاذلي بن عمر القطاري البالغ من العمر 21عاماً والمنتمي إلى تونس العاصمة، والمنوبي بن علي الجرجار البالغ 31عاماً ومن المدينة نفسها، أثارت تلك الأحكام، وخاصة أحكام الإعدام، موجة غضب عارمة بين الجماهير وزادت نار الغضب لديهم، لكنها لم تثنهم عن الاستمرار في نضالهم ومواصلة دورهم في مقاومة الاستعمار [17].

في انتفاضة عام 1915م، برزت قوة التلاحم بين الشعبين الليبي والتونسي في مقاومتهما للاستعمار الأجنبي، الذي تمثّل في القوات الفرنسية .قاد تلك المعارك خليفة بن عسكر النالوتي، وكانت لهذه الأحداث أهمية كبيرة امتدت حتى عام 1918م، وخلال تلك الفترة، وصف القبطان الفرنسي رفوكس الأحداث بين عامي 1915و 1918م بأنها لا تقل أهمية عن الحرب العالمية الأولى.

ومع عودة قادة الجهاد إلى ليبيا في سبتمبر 1915م، ومن بينهم سليمان الباروني، وسوف المحمودي، وأحمد المريض، انطلقت أولى المعارك التي شارك فيها التونسيون والليبيون ضد القوات الفرنسية، و شهدت تلك الفترة سلسلة من المواجهات البارزة، من أهمها معركة أم صويع بتاريخ 21أكتوبر 1915م ،ومعركة الرمادة بتاريخ 16يونيو 1916م.

ويرجع سبب مراقبة السلطات الفرنسية لليبيين في تونس إلى عدة عوامل أهمها:

أولا : اندلاع الحرب العالمية الأولى وتفاقم الأوضاع الدولية أدى إلى دخول فرنسا الحرب إلى جانب إيطاليا من جهة، وانضمام تركيا إلى جانب ألمانيا من جهة أخرى، وترافق ذلك مع دعوات للجهاد ضد الحلفاء، وهو ما وجد استجابة واسعة في كل من طرابلس وتونس، وتوحدت مشاعر المسلمين الليبيين والتونسيين حول مقاومة الاستعمار بمختلف أشكاله: الإيطاليين في ليبيا، الإنجليز في مصر، والفرنسيين في تونس والجزائر .ومع تراجع القوات الإيطالية، انتقلت العمليات العسكرية من الأراضي الليبية إلى مواجهة فرنسا في الجنوب التونسي، مما أجبر السلطات الفرنسية على مطاردة التونسيين النازلين بالأراضي الليبية، وكذلك تتبع الليبيين الذين كانوا يعملون داخل الأراضي التونسي.

ثانيا : الهجرة الجماعية للأسر الليبية باتجاه الجنوب التونسي جاءت نتيجة لتفاقم الفقر والمجاعة الناتجة عن الجفاف الذي ضرب المدن والقرى والأرياف في ليبيا وتونس، وذلك إثر الحرب التي ألحقت الدمار بكل شيء، وهذه الهجرات زاد الضغط على الخزانة الفرنسية ، حيث كلفت السلطات المحلية في تونس مبالغ طائلة .

ثالثاً : تم توجيه اتهامات لبعض الزعماء الليبيين بالتحريض على المقاومة المسلحة ضد المستعمرين الأوروبيين، سواء الإيطاليين أو الفرنسيين، وعلى رأس هؤلاء الزعماء (خليفة بن عسكر النالوتي) ومساعديه من الليبيين، بالإضافة إلى الزعيم التونسي (محمد الدغباجي) وأعوانه من التونسيين، وهذا الوضع دفع السلطات الفرنسية إلى توسيع دائرة الاتهامات، واعتقال كل من يُشتبه في تورطه، حتى لو لم تكن له صلة مباشرة بحركة المقاومة المسلحة.

استمر هذا الوضع حتى انتهاء الثورة المسلحة في الجنوب التونسي، والتي انتهت بالقضاء على زعماءها .في عام م، تمكنت السلطات الإيطالية من الإيقاع بـ(خليفة بن عسكر ومحمد الدغباجي) ورفاقهما عبر خداعهم ،حيث أُعدم (خليفة بن عسكر في يوليو 1922م) على يد السلطات الإيطالية وأعوانها، بينما لقي (محمد الدغباجي) مصيره لاحقًا، حيث قامت السلطات الإيطالية بتسليمه إلى السلطات الفرنسية التي أعدمته في 1 مارس 1924م، بعد أن صوَّرته على أنه جنديا فارا من الجيش الفرنسي.[18]

3 ـ دور المهاجرين السياسي :

لعب المهاجرون دورًا بارزًا في دعم حركة المقاومة والدفاع عن القضية الليبية، بالرغم من إدراكهم خطورة الأوضاع الناجمة عن السياسة التعسفية التي انتهجتها الإدارتان الفرنسية والإيطالية آنذاك، ورغم الصعوبات والمخاطر، حاول المهاجرون بكل جهدهم التصدي للعدوان ودعم قضيتهم من خلال اتحادهم واتخاذ تونس ملاذًا لهم، و لم يغفلوا عن القضية الأساسية، بل وجدوا الدعم من الشعب التونسي الذي وقف إلى جانبهم في عدة مناسبات برزت شخصيات مهمة ضمن حركة المقاومة مثل (سليمان الباروني)، الذي انتقل إلى تونس في عام 1913م، وفي عام 1918م، وأصبح أحد أعضاء الجمهورية الطرابلسية التي تأسست للدفاع عن القضية الليبية، كذلك، كان هناك دورا بارزا لشخصيات أخرى، مثل (سوف المحمودي) الذي استقر في جنوب تونس في عام 1913م، وهذا الموقع الاستراتيجي قرب الحدود الليبية، حيث مكّن المهاجرين من تعزيز نشاطهم السياسي، ونقل الأسلحة وتهريبها، والتحضير لفرص العودة لأراضيهم، ومرت المقاومة الليبية التونسية بمرحلتين من المواجهات، وكانت أولى المعارك في شهر سبتمبر عام 1915م ، وعندما اتحد مجاهدون تونسيون وليبيون ضد القوات الفرنسية، بقيادة (خليفة بن عسكر) مع انضمام أعداد كبيرة من المهاجرين التونسيين، وقد حاولت فرنسا استغلال الفرص للانتقام من سكان منطقة وازن التي اشتهرت باحتضان العديد من المجاهدين التونسيين، وأولى الاصطدامات وقعت في منطقة المرطبة يوم 13 سبتمبر 1915م، عندما قاد (محمد بن مذكور) مجموعة من المجاهدين في مواجهة القوات الفرنسية، وانتهت تلك المعركة بهزيمة الفرنسيين، حيث قُتل فيها جنديان فرنسيان، بينما تراجعت بقية الدورية منهزمة نحو مركز حاميتها في ذهيبة.

4 ـ الدور المهاجرين الثقافي:

شهدت حركة الهجرة الليبية إلى تونس انضمام العديد من المثقفين، الذين تميزوا بأقلامهم المبدعة، رغم أن نسبة هؤلاء المثقفين كانت أقل مقارنة بمن توجهوا إلى مصر أو بلاد الشام، ومع ذلك، فتح المشهد الصحفي التونسي أبوابه الواسعة أمام مساهمات الكتاب والمثقفين الليبيين، وذلك برغم من التحديات التي كانت تواجه الصحافة في ظل الاستعمار الفرنسي وما يحيط بها من مخاطر، وتركزت كتاباتهم بشكل كبير على مناقشة قضية

الاستعمار الإيطالي في ليبيا، مسلطين الضوء على الظروف الصعبة التي يعيشها الشعب الليبي، الذي عان من انتهاك ممتلكاته وأُجبر على الهجرة داخل وطنه.[21]

لعبت الصحافة التونسية دورًا فاعلًا في دعم الشعب الليبي، حيث لم تقف موقف المتفرج، بل دعمت الليبيين وحثتهم على استخدام الإعلام كوسيلة للدفاع عن أراضيهم ، وتشجيع المهاجرين على المقاومة، وقد أثّر موقف السلطات الفرنسية السلبي تأثيرًا عميقًا في موقف الصحافة التونسية التي تُعد صوتًا للرأي العام، فالصحافة التونسية لم تلتزم الصمت، بل عبّرت عن رفضها للإجراءات التي اتخذتها فرنسا، معتبرة تلك الإجراءات تعديًا على مشاعر المسلمين بشكل عام وعلى التونسيين بشكل خاص.[22]

أظهرت انتفاضة عام 1915م قوة التلاحم بين الشعبين الليبي والتونسي في مواجهة الاستعمار الأجنبي الذي تمثل في 1915 م القوات الفرنسية .وقد تولّى قيادة المعارك (خليفة بن عسكر التالوتي)، وكانت لهذه المواجهات أهمية كبيرة استمرت حتى عام 1918م، وخلال تلك الفترة، عبّر القبطان (الفرنسي رفوكس) عن هذا الصراع الذي لم تقل أحداثه بين عامي 1915 و1918 م ،أهمية عن الحرب العالمية الأولى، وبجودة عدد من قادة الجهاد الذين عادوا إلى ليبيا، مثل (سليمان الباروني)، (سوف المحمودي)، و(سيف النصر وأحمد المريض)، حيث ازدادت حركة المقاومة زخماً في شهر سبتمبر من عام 1915م، انطلقت أوائل المعارك المشتركة بين التونسيين والليبيين ضد القوات الفرنسية، وتبعها سلسلة من الاشتباكات، كان أبرزها معركة أم صويغ بتاريخ 12أكتوبر 1915 ومعركة الرمادة بتاريخ 16يناير.[23]

الخاتمة:

هجرة الليبيين إلى تونس خلال الحرب الإيطالية على ليبيا (1911–1928) كانت من أبرز مظاهر مقاومة الاحتلال والنجاة من القمع، وقد ترتب عنها هجرة الآلاف من الليبيين، خصوصًا من المناطق الغربية (طرابلس والجبل الغربي)، إلى تونس هربًا من القصف، الاعتقالات، والاضطهاد، وقد وجد الكثير منهم ملاذًا نسبيًا أكثر أمنًا في المناطق الحدودية التونسية مثل مدنين، تطاوين، بنقردان، وقابس، حيث ظلوا كثيرا من الليبيين في تونس حتى بعد انتهاء الاحتلال، وبعضهم حصل على جنسية أو اندمج في المجتمع المحلي، وقد أسس الليبيون في تونس مجتمعات متماسكة وحافظوا فيها على هويتهم القبلية والدينية، و الاستمرار في دعم المقاومة، وكانت تونس قاعدة خلفية للمقاومة الليبية؛ حيث تواصل

المجاهدون الليبيون مع زعماء في الخارج، حيث نشطت شخصيات من تونس ومن ليبيا، وظهرت مخيمات لجوء في الجنوب التونسي، وبعضهم استقر بشكل دائم، على المعونات والمساعدات ، وقد عان المهاجرون الليبيون من ظروف معيشية صعبة، وتلقى بعضهم مساعدات من الأهالي التونسيين.

وأما من الجانب الاقتصادي أدى تدفق اللاجئين إلى زيادة الضغط على الموارد المحلية في الجنوب التونسي، الذي كان فقيرًا أصلاً، وارتفعت الأسعار، وتدهورت الخدمات الأساسية في بعض المناطق.

كما ولّدت الهجرة تعاطفًا وتضامنًا شعبيًا تونسيًا واسعًا مع القضية الليبية ، ساهم هذا في تقوية العلاقات الشعبية والتاريخية بين ليبيا وتونس، التي لا تزال مستمرة.

و أدت الهجرة إلى تبادل ثقافي بين الليبيين والتونسيين، خصوصًا في المأكل، اللباس، اللغة والعادات،

لا تزال بعض العائلات الليبية مستقرة في تونس حتى اليوم، وتحمل آثار هذا التاريخ.

الهوامش :

1. البوري ،عبد المنصف حافظ،الغزو الايطالي لليبيا دراسة في العلاقات الدولية ،الدار العربية للكتاب 1983 ص362 .
2. عبد الكريم الماجري ،إسهامات الليبيين في تعمير البلاد التونسية طيلة ثلاثة قرون(1650-1950) الطبعة الأولى :2025 ص55.
3. إنعام شرف الدين ،مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي ،دراسة في المؤسسات المدنية التجارية 1835-1711،منشورات مركز جهاد الليبيين للدارسات التاريخية ،ط 1- طرابلس 1998، ص 144
4. إبراهيم أبو القاسم ,المهاجرين الليبيون في البلاد التونسية 1911-1957’ص20
5. المرجع سابق ص 27.
6. إبراهيم أحمد أبو القاسم ،المهاجرون الليبيون بالإيالة التونسية ،1881-1861-أطروحة لنيل شهادة الكفاءة في البحث .تونس :جامعة تونس الأولى ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية .1988.ص25
7. مفتاح السيد الشريف ،الاستعمار الايطالي لليبيا ،الطبعة الاولى دار النشر الليبية ،1970،ص20

8. البلاد التونسية –أبو القاسم المهاجرين للبلاد التونسية،إبراهيم أبو القاسم ،مرجع سابق ،ط ،تونس ص48
9. عبد الرحمن تشايجي ،المسألة التونسية والدولة العثمانية تعريب عبد الجليل التميمي تونس دار الكتب الشرقية 1973 ص172 - 175.
10. المهاجرين الليبيون بالبلاد التونسية،د،إبراهيم أحمد أبو القاسم،1911-1957 ،ص34 -35.
11. المهاجرون الليبيون، مرجع سابق
12. البوري عبد المنصف حافظ،الغزو الإيطالي لليبيا دراسة في العلاقات الدولية،دار العربية للكتاب،1983م،ص362.
13. د.إبراهيم أحمد أبو القاسم، (1911-1957م)مرجع سابق،ص171.
14. عبد الرحمن تشايجي،المسألة التونسية والدولة العثمانية ،تعريب عبد الجليل التميمي:تونس:دار الكتاب الشرقية ،1973م ،ص172-175.
15. أحمد زارم، حتلا يضيع التاريخ:ذكريات من الماضي القديم:دار الحرية ،1972م ،ص35.
16. البوري عبد المنصف حافظ،الغزو الإيطالي لليبيا دراسة في العلاقات الدولية،دار العربية للكتاب،1983م،ص41.
17. محمد سعيد الفسطاط ،خليفة بن عسكر :الثورة والاستسلام .الطبعة 1 بيروت ،دار المسيرة ،1976.ص59 وما بعدها
18. أرويعي محمد علي قناو ،الكفاح الوطني للمهاجرين الليبيين ضد الغزو الايطالي 1911-1945،ص 103-102
19. البوري عبد المنصف حافظ،الغزو الإيطالي لليبيا دراسة في العلاقات الدولية،دار العربية للكتاب،1983م،ص362.
20. المرجع السابق.
21. إبراهيم أحمد أبو القاسم ،مرجع سابق،103.
22. محمد سعيد القساط ،خليفة بن عسكر مرجع سابق، ص59ومابعدها.